

قد فضح رحمتنا بقساوته

ورد في تنمة سفر أستير في رسالة الملك أرتخششتا التي كتبها بشأن اليهود إلى أقاليم مملكته: "فإن هامان بن همداتا الذي هو مكدوني جنساً ومشرباً وهو غريب عن دم الفرس **وقد فضح رحمتنا بقساوته** بعد أن أويناه غريباً..." (أس ١٠: ١٦). والترجمة الإنجليزية لهذا النص تستبدل عبارة فضح رحمتنا بعبارة لوث (أو أفسد) رحمتنا.

إن كان الملك أرتخششتا في سفر أستير يرمز إلى الله الذي هو ملك الملوك ورب الأرباب فإن هذه العبارة: "قد فضح (لوث أو أفسد) رحمتنا بقساوته" قد تكون التقرير النهائي الذي يصف به الله حال الكثيرين. وما أصعبها عبارة قد يسمعا إنسان عن نفسه على فم الله !!

يتحدث الكتاب المقدس في مواضع كثيرة جداً عن كون الله رحوماً، وعن كون رحمته جزءاً من طبيعته وبالتالي فإن مراحمه تفيض ليس فقط على بني البشر بل وعلى كل خليقته في كل حين. فلو امتنعت مراحم الله عن خليقته للحظة واحدة لفني العالم كله في برهة.

لكن للأسف يوجد على الجانب الآخر كثيرون يحجبون مراحم الله بقساوتهم، ويشوهون صورته الحنونة الرحيمة في أعين أبنائه بسبب فظاظة مشاعرهم وأعمالهم. إنهم بذلك يزرعون الشك والسجس في قلوب الناس من جهة مراحم الرب إذ يجعلونهم يظنون خطأً أنه المريد والمحرك الحقيقي للحروب والكوارث والجرائم الوحشية الفظة التي يعاني منها العالم على كل المستويات. لكن يبقى الحق كل الحق فيما وُصف به الله: "ظلم أما هو فتذلل ولم يفتح فاه" (أش ٥٣: ٧).

وهامان الحقيقي الذي يشوه مراحم الله بقساوته هو عدو الخير الذي يحمل في طبيعته صفات الوحشية والفظاظة والعنف. فبينما يجول الله في الأرض يصنع خيراً ولطفاً وحنواً يجول عدو الخير يزرع زوان القسوة في قلوب الناس فلا يعود للشفقة والرافة والحنو مكاناً فيهم.

وإن كانت قساوة الشرير وأعوانه تفضح مراحم الله بمعنى أنها تحجبها وتشوهها إلا أن عبارة "فضح رحمتنا بقساوته" تعني أيضاً أنه بسبب قساوته تمجد الله بالأكثر حيث تجلت مراحمه وإسُئِلت بالأكثر. ولعل هذا ما حدث مع فرعون الذي استعمل الله قساوة قلبه ليجري عجائباً في شعبه مظهراً لهم عظم رحمته: "لأنه يقول الكتاب لفرعون إني لهذا بعينه أقمتك لكي أظهر فيك قوتي ولكي ينادى بإسمي في كل الأرض فإذاً هو يرحم من يشاء ويقسي من يشاء" (رو ٩: ١٧-١٨).

ليتنا الآن نأخذ من قول بولس الرسول: "إن كانت أحشاء ورأفة" (في ٢: ١) شعاراً لنا في كل تعاملاتنا مع كل خليفة الله. ولننتبه أنه ينبغي على أبناء الله أن يكونوا: "آنية رحمة" (رو ٩: ٢٣) ترنم في كل حين متهلة: "بمراحم الرب أغني إلى الدهر" (مز ٨٩: ١).